المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: بناء المسجد
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
BUILDING THE MOSQUE
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

بناء المسجد:

بعد أن غادر الرسول ρ قباء متوجها إلى المدينة للاستقرار فيها، كانت مختلف عشائر المدينة تتنافس على شرف استضافته في دورها، فكان كلما مر بإحدى هذه العشائر جاؤوا إليه وأمسكوا بزمام ناقته قائلين: (يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة)، فكان يعتذر إليهم بقول: (خلوا سبيل الناقة، فإنها مأمورة)، ويبدو أن الرسول ρ لم يرد أن يختار بنفسه النزول عند إحدى العشائر دون غيرها، كي لا يفقد صفة الحياد المطلق في التعامل مع الجميع على قدم المساواة.

وأخيرا فإن الناقة قد بركت في الموضع الذي شيد فيه مسجد رسول الله ρ ومساكن زوجاته، وكان هذا الموضع مربدا لغلامين يتيمين من بني النجار، فاشتراه منهما الرسول ρ بعشرة دنانير.

وكان المربد الذي بركت فيه الناقة مجاورا لدار أبي أيوب، خالد بن زيد من بني النجار، وهم أخوال جده عبد المطلب، فنزل عنده حتى تم بناء المسجد ومساكنه.

لقد كان أمر بناء المسجد على رأس أولويات الرسول ρ لذا فقد أمر المسلمين بالمساعدة في بناءه، وعمل هو بنفسه في البناء، ليرغب المسلمين في العمل، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه.

وهكذا تجلت روح الوحدة والتضامن بين أبناء المجتمع الجديد وهم يشاركون جميعا بحماسة في بناء المسجد الذي سيكون مركز الفعاليات الدينية والسياسية والعامة للأمة الناشئة.

لقد تم بناء جدران المسجد بمادة اللبن وجعل سقفه من جريد النخل، أما عمد المسجد فقد اتخذت من جذوع النخيل أيضا، وكانت مساحته مائة ذراع مربعة، أي ما يوازي ستين مترا مربعا، وقد وجهت قبلة المسجد إلى بيت المقدس، لأن المسلمين كانوا لا يزالون يتوجهون في صلاتهم إليها.

وقد بنى الرسول ρ إلى جانب المسجد مساكن لزوجاته من اللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد، وكانت عبارة عن غرف صغيرة قصيرة البناء، ويلاحظ أن الرسول ρ قد جعل مساكنه متصلة بالمسجد بحيث يخرج من بيته إليه مباشرة، وبذلك أصبح من السنة أن تبنى المساجد وتكون بيوت الولاة ودواوينهم مجاورة للمسجد، فالغرض من تأسيس المسجد كان دينيا لأداء الصلاة، وسياسيا لإيجاد رابطة للجماعة الإسلامية.

ويبدو أن عملية بناء المسجد ومساكن الرسول ρ قد استغرقت حوالي سبعة أشهر. لذا فإن مقام الرسول ρ في منزل أبي أيوب الأنصاري τ قد استمر سبعة أشهر انتقل بعدها إلى مساكنه.

وكان الرسول ρ قد بعث زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ρ وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد. وبذلك استطاع أن يجمع شمل عائلته ويتفرغ لإدارة شؤون المسلمين من خلال مقره الجديد في مسجد المدينة.

المؤاخاة:

إن المبادئ التي جاء بها الإسلام قد خلقت بين المسلمين بها –ومنذ المرحلة المكية– روحا من التعاطف والمودة والتعاون بصفتهم جماعة واحدة، تخضع لقيادة واحدة، في مواجهة من خالفها من الكفار.

وقد عمل الرسول ρ على معاملة أصحابه على قدم المساواة، وحث أتباعه الأغنياء على مساعدة الفقراء والمستضعفين من المؤمنين، لقا فقد روي أن أبا بكر الصديق τ قد قام بشراء سبعة من الأرقاء المسلمين الذين كانوا يعانون من تعذيب أسيادهم المشركين وأعتقهم في سبيل الله، وكان أبرزهم بلال الحبشي.

وهكذا نلاحظ أن العقيدة في الله قد استطاعت أن توجد بين المسلمين من أسباب التعاطف والتعاون والمحبة ما يوازي أو يتفوق على ما تخلقه رابطة الأخوة في الدم، لذا فقد أطلق على العلاقة التي تشد المؤمنين بعضهم إلى بعض الأخوة في الله.

وبعد وصول الرسول ρ إلى المدينة واستقراره فيها، تحول المهاجرون من أماكن إقامتهم الأولى في قباء وانتشروا في المدينة، وكان الأنصار قد تنافسوا في استضافتهم في دورهم.

ويبدو أن الرسول ρ قد قدر أن إقامة المهاجرين على الأنصار لابد أن تكون حالة دائما، لذا فقد سعى إلى الحصول على أراض وتوزيعها على المهاجرين لبناء مساكن لأنفسهم عليها، فقد خط الرسول ρ لأصحابه في كل أرض ليست لأحد، وفيما وهبت له الأنصار من خططها.

وعلى الرغم من كل ما قدمه الأنصار من استضافة وحسن مواساة لإخوانهم المهاجرين، إلا أن كثيرا من المهاجرين كانوا يجدون صعوبة في الموائمة مع بيئة المدينة لاعتبارات مناخية واجتماعية.

وقد آخى الرسول ρ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فكان السبب الذي دعا الرسول ρ لإعلان المؤاخاة –بحسب رأي السهيلي– اجتماعيا واقتصاديا.

إن السبب الرئيس للمؤاخاة كان سببا اجتماعيا يستهدف إقامة علاقة تقوم على المساواة والمؤاساة بين المهاجرين والأنصار، أما العامل الاقتصادي فكان عاملا ثانويا فيها، لأن الأنصار كانوا يقومون بتقديم المساعدات الاقتصادية لإخوانهم المهاجرين قبل إعلان المؤاخاة واستمروا على تقديمها بعد نسخ حكم التوارث الذي تضمنته.

صحيفة المدينة:

أوردت المصادر عن بناء الرسول ρ للمسجد وقبل أن يعلن المؤاخاة نص الكتاب الذي كتبه رسول الله ρ بين المهاجرين والأنصار الذي وادع فيه يهود وعاهدهم، ويتألف هذا الكتاب من حوالي خمسين فقرة تنظم

العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية بين مختلف الفئات التي يتكون منها أهل المدينة، وبين الرسول ρ بصفته رسولا ورئيس دولة، لذا فقد عد بعض الباحثين المعاصرين هذا الكتاب أو الصحيفة بمثابة دستور المدينة.

إن الصحيفة إعلان من جانب واحد وليس معاهدة أو عقدا بين طرفين، وأن الغاية من هذا الإعلان هي تنظيم العلاقات العامة بين أهل المدينة وبين الرسول ρ باعتباره صاحب السلطة العليا فيها، غير أن ذلك لا يمنع من القول أن من المحتمل أن تكون قد سبقت ذلك الإعلان اتصالات ومفاوضات بين الرسول ρ وبين مختلف فئات السكان من أهل المدينة، انتهت بتفويض الرسول ρ صلاحية إعلان هذا الكتاب أو الصحيفة لتنظيم الأوضاع الدستورية في المدينة.

وقد كتبت هذه الصحيفة في الشهر الخامس من وصول الرسول ρ إلى المدينة. وجاءت متزامنة مع إعلان المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء المسجد، وبذلك تكامل البناء الاجتماعي والدين مع البناء السياسي لدولة المدينة، مما أفسح المجال أمام الرسول ρ لتنظيم الجهاد ضد مشركي مكة من خلال السرايا والغزوات.

إن الصحيفة صورة للتنظيم القانوني الذي وضعه الرسول ρ لتنظيم أوضاع دولة المدينة في مراحلها المبكرة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وقد شكلت فكرة إيجاد «أمة واحدة من دون الناس» المحور المركزي الذي دارت حوله مختلف الأحكام والمعالجات في الصحيفة.

غزوات الرسول ρ:

ذهب كتاب السيرة إلى تسمية الحملات العسكرية التي قادها الرسول ρ بنفسه باسم «الغزوات»، في حين أطلقوا على الحملات العسكرية التي عهد بقيادتها إلى غيره باسم «السرايا» أو البعوث.

غزوة ودان:

إن أول غزوة قادها الرسول ρ بنفسه كانت غزوة ودان، وقد أطلق عليها أيضا غزوة الأبواء، وقد وقعت في شهر صفر. ولم تزودنا المصادر بعدد أفراد القوة التي خرج بها الرسول ρ للقتال، ولمنها ذكرت أن جميع أفرادها كانوا من المهاجرين، وأن حمزة بن عبد المطلب قد حمل اللواء، وكان لونه أبيض، كما استخلف على المدينة سعد بن عبادة، أما هدف الرسول ρ من هذه الحملة، فكان التعرض لقافلة تجارية لقريش، إلا أن الهدف لم يتحقق ربما بسبب هرب القافلة، لذا فقد عمل الرسول ρ على موادعة مخشي بن عمرو الضمري، سيد بني ضمرة على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعا ولا يعينوا عليه عدوا، وكتب بينه وبينهم كتابا.

سرية عبيدة بن الحارث:

بعث رسول الله ρ هذه السرية بعد عودته إلى المدينة من غزوة ودان في أوائل شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، وكان عدد رجال هذه السرية ستين أو ثمانين مقاتلا من المهاجرين، وقد اتجهت هذه السرية

إلى ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعا عظيما من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي في الإسلام. وكان عدد المشركين يومئذ مئتين وكانت قافلتهم بقيادة أبي سفيان، وقد حصلت بينهم وبين المسلمين مناوشة ولم يصطفوا للقتال، ثم انصرف هؤلاء على حاميتهم، وهؤلاء على حاميتهم.

سرية حمزة بن عبد المطلب:

بعث رسول الله ρ هذه السرية بقيادة عمه حمزة إلى سيف البحر من ناحية العيص، في ثلاثين راكبا من المهاجرين في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة إلى المدينة في موعد قريب من موعد إرسال سرية عبيدة بنت الحارث، وبعض الناس يقول كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ρ لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معا، فشبه ذلك على الناس. وكان رجال سرية حمزة شطرين خمسة عشر من المهاجرين، وخمسة عشر من الأنصار.

وقد اعترضت هذه السرية عند سيف البحر قافلة لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة، فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة. فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى بينهم مجدي بن عمرو، وكان حليفا للفريقين جميعا، فلم يزل يمشي إلى هؤلاء وإلى هؤلاء حتى انصرف القوم وانصرف حمزة راجعا إلى المدينة في أصحابه.

سرية سعد بن أبي وقاص:

بعث رسول الله ρ هذه السرية في ثمانية رجال من المهاجرين حتى بلغت الخرار من أرض الحجاز، ثم رجعت ولم تلق كيدا، وذكر أن عدد أفراد هذه السرية كان حوالي العشرين شخصا، وأنا خرجت للتعرض لقافلة من قوافل قريش، إلا أنها لم تستطع اللحاق بها، إذ كانت قد غادرت المكان قبل وصول السرية بيوم واحد.

غزوة بواط:

خرج رسول الله ρ إلى بواط، من ناحية رضوى في آخر ربيع الأول، للتعرض لقافلة قريش، ولم يلق كيدا، وقد أوضح ابن سعد أن الرسول ρ خرج في مائتين من أصحابه يعترض لعير قريش، فيها أمية بن خلف الجمحي، ومائة رجل من قريش وخمسمائة بعير، فبلغ بواط، وهي جبال من جبال جهينة، ... مما يلي طريق الشام... فلم يلق رسول الله ρ كيدا فرجع إلى المدينة.

ويبدو أن تعبير أن الرسول ρ لم يلق كيدا، مفاده أنه لما وصل هدفه كانت قافلة المشركين قد هربت، فلم يحصل قتال، وربما أن هدف الرسول ρ من هذه الحملات كان محصورا بحدود عملية استعراض القوة وإشعار مشركي مكة بالخطر، فضلا عن محاولة كسب قبائل العربية المتواجدة على الطريق، بدليل أن الرسول ρ قد لبث في بواط حوال الشهر.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الثاني

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الثاني

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الثاني

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح